

تصور التعليم فى القرآن الحكيم

الاستاذ محمد جعفر شاه الفلواروى

كراتشى — باكستان.

أن للقرآن نظاما منفردا عن غيره، فلنظام الحياة القرآنى اطار لا يثبت فيه شىء الا اذا كان جزءا من ذلك النظام . و تصور التعليم القرآنى لا ينفك عن تصور الحياة القرآنى كله ، واذا انفك لا يثمر . و القرآن له نظام خاص كامل لا يقبل شيئا من نظام آخر الا اذا كان مطابقا لروحه و مغزاه و سلائما لفحواه، فمن أجزاء النظام القرآنى نظام الاخلاق و نظام الاجتماع و نظام الاقتصاد و غير ذلك من نواحي الحياة المختلفة، فنظام التعليم القرآنى لن يثمر الا اذا وضعناه فى الاطار الاسلامى.

ان كلمة العلم و مشتقاتها وردت فى القرآن فى اربعمائة موضع و من اهم هذه المواضع ما ذكره الله سبحانه فى قصة آدم (عليه السلام) نرى ان الملائكة هم المعصومون عن المعصية ، لا يخطئون ولا يذنبون وانما يسبحون الله سبحانه و يقدسونه . وان الانسان يفسد فى الارض و يسفك الدماء ، ومع ذلك فان الله سبحانه وضع تاج الخلافة على رأس ابى البشر، لاعلى رؤوس الملائكة ، ولم يكن لذلك الاصطفاء سبب الا ان الملائكة قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، . و ان الله سبحانه ، ”علم آدم الاسماء كلها“ ، و ملخص هذه القصة المذكورة فى القرآن ، ان علم الملائكة محدود لا يزيدون على علمهم شيئا ولا يستنبطون من علمهم علما آخر، ولا يطلعون على المجهولات من معلوماتهم . وان الله رزق الانسان صلاحية العلم غير المحدودة

و بها يزداد علما على علمه كل يوم و يبدع علوما جديدة كما يستخرج المعجولات من المعلومات.

ومن المعلوم ان الايمان لا يحصل الا بعد العلم و كيف يمكن الايمان بما لا يعلمه الانسان ، فالعلم من متطلبات الايمان و شروطها.
و هناك ينشأ سؤال هام ممتع ما هو الفرق بين علم الحيوانات و بين علم الحيوان الناطق اى الانسان ؟ و الحال ان الحيوانات اسبق و اقدم من الانسان فى بعض العلوم، و اليكم بعض الامثلة :

(١) ان الانسان لا يدري متى ينزل الغيث حتى ان مصلحة الطقوس و الاجوا كثيرا ما تخطى فى تنبؤاتها الطقسية - و ان النملة تدرك الغيث الآتى فى المستقبل و تذهب ببيضها فى فيها الى الجحر المصون.

(٢) و كذلك الحدأة تترك عشها و تطير من الشجرة المجوفة قبل ان تسقط بسنة و ان الانسان لا يعلم متى تسقط الشجرة ،.

(٣) وانظروا الى النحل كيف تطير و تذهب الى مسافات بعيدة ثم ترجع الى خلاياها بدون خريطة المساحة. و الانسان يسهو بمقامه و ينسى الطريق الى داره كما ترون كل عام فى موسم الحج.

(٤) خذوا هرة داجنة اليفة واجعلوها فى الشنطة اوا لكيسة و اذهبوا بها على مدى عشرة اسيال ثم فكوها فهى ترجع بعد ايام تموء بمواتها و ليس لها من يهديها الطريق الى بيتها المألوف.

فيثبت من هذه الامثلة ان الحيوانات اقدم و اسبق من الانسان فى بعض العلوم ، وكذلك اذا اخذنا الحيوانات مثل القردة و الاسد و الدب و الفرس و الفيل و الكلب

والطير وغيرها ودريناها فهي تلعب العبا عجيبة تحير الناظرين .

ومع ذلك هناك فرق عظيم بين علم الحيوانات و بين علم الانسان . ان الحيوانات تلعب الالعب التي تعلم و تدرب عليها ولا تبعد من عند انفسها لعبا جديدا، ولا تزيد على ما دربت عليه شيئا، كما انها لا تقدر على ان تعلم احدا من ابناء جنسها شيئا مما علمت او دربت عليه ، فالفرق بين علم الحيوانات و بين علم الانسان واضح وهوان الانسان يتعلم و يعلم ، والحيوانات تتعلم فقط ولا تقدر على ان تعلم . وان الحيوانات لا تزيد شيئا على ما علمتها الفطرة ، و علم الانسان يتزايد حتى انه اليوم بدأ يصعد القمر والكواكب الجوية — وهذا ما جعل الملائكة كلهم يسجدون له الا ابليس ابى واستكبر و كان من الكافرين .

ومن سزايا الانسان ان الله وهب له اللسان والقلم وبهما يتعلم و يعلم — اللسان يقرأ و القلم يكتب — و اول آيات نزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . (العلق : ١ - ٥) فالقراءة و الكتابة كلتا هما من اوامر الله سبحانه ، وهذا اول وحى نزل فى غار حراء ، ولذا قال النبي صلى الله عليه و سلم : ”بعثت معلما .“ وقال الله سبحانه : ”ويعلمهم الكتاب والحكمة“ ، — والله در من قال : ان النبي صلى الله عليه و سلم لم يكن عمرو بن هشام باي الكفر بل كناه باي جهل — فيظهر بهذا ان الجهل توأم الكفر ولا يجتمع مع الاسلام ، و ألفت انظاركم الى لطيفة علمية ان الجارح اذا صاد بهيمة من الانعام او اخذ طيرا حل اكله ، واذا مات الصيد قبل الذبح فلا يحل اكله ولكننا اذا كلبنا الجارح و علمناه الصيد فاطلقناه باسم الله ، فصيده حلال طيب و لومات قبل الذبح ، قال سبحانه : وما علمتم من الجوارح سكين تعلمون من مما علمكم الله فكلوا مما اسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، (المائدة : ٤)

فهذه الآية الشريفة تشير اشارة واضحة الى ان الجراح اذا تعلم يرتفع من الحيوانية الى مستوى الانسان بل الى مستوى المسلم الذابح، و هذا الفرق بين الجهل و العلم واضح جدا ولذا قال الله سبحانه : ”هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.“،
(الزمر: ٩)

و حسبنا في ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ”اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلثة، صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له“،—فعلينا ان نفتش ما هو العلم النافع الذى ينتفع به- فالنفع يدخل فيه كل نوع من المنافع ، دنيويا كان او آخرويا ، بدنيا كان او ذهنيا ، خلقيا او عقليا ، سياسيا او اقتصاديا ، علميا ووعلميا ، فكل نوع من هذه الانواع اذا كان ينفع فهو علم نافع - ولا يخرج من هذا اختراعات فنية جديدة او اكتشافات ميكانيكية حديثه ، ان عصرنا هذا عصر النمو و التطور و عهد التيقظ والتنور، ولا يمكن انكار العلوم الجديدة الفنية و كونها نافعة، انها اعطت الادرر اسنانا يمضغ بها ، والاصم آذانا ميكانيكية يسمع بها ، والضرير عيوننا يبصر بها، واعطت البصلات والمراوح البرقيه والمكينات المختلفة ، كما ان كثيرا من مراكب النقل التى قلصت الزمان والمكان هى ايضا من منة العلوم الجديدة المكينية ، او ليس تلك العلوم نافعة للناس ؟.

المالوف عندنا ان من يتخرج من المدارس وهو تعلم التفسير و الاحاديث والفقه واللغة والآداب فنحن نلقبه بالعالم و نقول انه من العلماء او من علماء الدين . و الصحيح انه عالم التفسير والفقه او الآداب او غير ذلك و كذلك من تعلم اى فن من الفنون ، فهو عالم الهندسة او البرقيات او الزراعة او السياسة او العسكرية . والعلماء عند القرآن الكريم هم الذين يفكرون فى آفاق السماء و الارض وما بينهما و يدبرون صحائف الكائنات ، قال الله سبحانه : ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا

الوانها و من الجبال جدد بيض و حمر مختلف الوانها و غرايب سود. و من الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور. (فاطر: ٧ - ٨).

ففى هذه الآيه المباركة لفت الله سبحانه انظارنا الى الالوان خاصة و علم النبات و علم الجبال و علم الحيوانات وسمى الذين تفكروا فى هذه الاشياء العلماء وقال: انما يخشى الله من عباده العلماء فالعباد الذين يتفكرون فى خلق السموات والارض وما بينهما و يتقدمون الى تسخير ما فى الكائنات و استغلالها فهم العلماء عند الله سبحانه كما بينته الآيه الكريمة ، لا من تخرج من المدارس الدينية فقط.

و ان صح هذا الحديث الشريف ما نصه : اطلبوا العلم و لو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم (رواه البيهقى فى شعب الايمان عن سيدنا أنس).

فلا يخفى ان الصين لم يدرس فيها ما يدرس فى مدارسنا الدينية ، فمعنى طلب العلم بالصين ما هو الا الفنون الدارجة النافعة ، و قال النبي صلى الله عليه و سلم : الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها اخذها (رواه ابن عساكر) و هذا كما قال صلى الله عليه و سلم : الحكمة ضالة المؤمن ، (رواه ابن ساجه).

و أخيرا اريد ان الفت نظر كم الى نقطة هامة ، و هو أن أخطأ الخطيئات انا قسمنا العلم قسمين ، أعنى علما دينيا و علما دنيويا - و هذه ثنوية واضحة لا يقبلها الاسلام - العلم كالدين يستوعب شؤون الحياة كلها - وليس العلم بدني و لا بدنيوى ، العلم هو العلم لا غير ، و يكون العلوم كلها دينية اذا كانت وجهة النظر اسلامية ، و اذا كانت وجهة النظر غير اسلامية فالعلوم كلها دنيوية و لو كان ذلك علم التفسير او الفقه او غير هما ، و هذا ما اشار الله اليه بقوله : ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا.

(البقرة: ٤١)

وسئاله قول الرياضي: اذ اجمعت الاثنان مع الاثنان يكون حاصله اربعاً، فهو صحيح يفيد اليقين غير انه يتحول الى علم جاهلي و يكون غير اسلامي اذا اريد به حساب الربا ، أما اذا اريد به حساب المواريث المذكورة في القرآن فهوعين العلم الديني. فالرياضية ليست في نفسها دينية ولا دنيوية، و انما يتغير حكمها باعتبار وجهة النظر والاستعمال والنية. و ينطبق هذا القول على جميع علوم الشرق والغرب، قديمة كانت ام جديدة.